أن أجدد ولائى مع شروق شمس عامك الجديد ... فها ولاء بدل كل عطاء بدون أخذ وخدمة بدون أجر وتأديب بدون سحق ....

ها ولاء بدل كل لحظة حلوة وضعتها فى حياتى . وبدل كل ساعة ذهبية لضمتها فى سلك أوقاتى ؛ وبدل كل كلمة عذبة همستها في آذانى . . وبدل كل نظرة تشجيع قوت آمالى . .

ها ولاء يحمله لك قلبى ويرجع اليه فكرى بينما انغمس في مشاغل الحياة الكثيرة . وتغسل منى روحى وتفر اليك به اتمتع بمسرات بينما الحياة التى يخفق لها قلبى . ها ولاء هو نصيب أولياء الامور من أوصيائهم الذين حرموا من يد والدية فوجدوا يداً أقوى يقبضون عليها في طريق الحياة الوعر ! ..

.....

الذكرى

شبح الماضى المتضائل تستعرضه مخيلاتنا كلما هاج القلوب حنين. وطيف الحقائق الدفينة يفشانا كلما وجد من خلو اذهاننا سبيلا .

الذكرى قوة خيالية تستولى على النفوس لاول ما تستثار من مكمنها وتستعيد امام العيون من مختلف المناظر ما يحرك أوتار العواطف المتباينة فتنبعث منها نغمات خفية هى صدى ما يكنه القلب من طرب وفرح أو أسى وغضاضة أو استغفار وتوبة أو لوعة وشجن .

هنالك تحت سيطرة هذه القوة تسمع همس الاثيم التائب نادما على كل جرم ارتكب وذنب أتى مستغفراً الله عما جنت يداه مطهرا نفسه

بدموع التوبة من سالف الخطايا . وتشهد المظلوم عابس الوجه حائر الذهن ترتعد فرائصه لذكر عقوبة وقعت عليه ظلما وعدوانا . وتلقى المحزون مشتت الفكر مطرق الرأس تتوارد امامه صور شتى يطيل النظر الى الجميل منها وتكاد تذيبه الحسرة على انقضاء عهوده ويضطرب كلما مر أمامه من الصور المؤلمة ما يذكى النار الدفينة فى أحشائه حتى تفيض العين من سيلها ما يطفىء لظاها اذ ذاك يرحل طيف الذكرى .

هذا وحى الألم الي مذ عرفت الألم وشعور طالما شعرت به مذ اختطف الموت أخى فى عنفوان شبابه وخلف فى فؤادى الداي حسرة ولوعة .

الاخوان والاصدقاء والاهل والاحباء مصادر تعمل لسعادتنا فان فقدنا أحد هؤلاء انهدم من بناء تلك السعادة على قدر ما كان له من اليد فى انشائه وها أنا بعد موت أخى أشعر بفقدان شطر كبير من سعادتى تبدل عندى بسببه طعم الحياة وصرت أرى فى كل شيء جانبا مظلما كئيبا ولم يبق لمعنى من معانى الجمال ذاك الاثر الساحر الخلاب بل جمدت العواطف امام مختلف الاشياء الا ما كان منها مثيراً للذكرى .

اصبحت اسمع بالنبأ السار فلا اطرب لان قلبى محزون وحرام على القلب المحزون الهناء . واتلقى الخبر المؤلم فلا احفل به كثيراً لان وقع الحادث الجلل اثقل نفسى فهون عندى أموراً طالما اكبرتها واذرفت من اجلها الدمع مدرارا . ما كان اغزر دمعى لدى كل صغيرة وكبيرة وما اضنى اليوم بالبقية الباقية فى محاجرى الناضبة المحترقة . سلبنى الموت ذخرى الثمين فبات دمعى عليه موقوفا .

كثر ما تزور المحزون الذكرى . في ظلمة الليل الحالك يشرق امامي الوجه البسام وفي اعماق سكينة الوحدة اسمع الصوت المحبوب وبين تموجات الهواء استشعر النغمات المطربة الرقيقة وازاء كل منظر جذاب وحديث شائق اتمثل الروح الوثابة والنطق العذب . ولكن سرعان ما يسدل الستار ويبدو أمامي الختام المحزن . شاب في ميعة العمر ومقتبل الشبيبة ناشط للحياة مبتهج القلب واسع الامل صارعه المرض حتى صرعه محتملا فوق الآلام الجسدية من آلام النفس ما اضناه وزاد في سقمه حتى أودى به . ألا قاتل الله المرض يفتك بالشباب غير مراع له حرمة ولا مشفقا لقلوب تعذب لعذابه .

حنانيك يا رب بالامهات فما أعظم بؤسهن لرؤية زهورهن تذبل في ربيع النضارة والنضارة وتسقط فتذر مكانها جرحا لن يضمد مهما تعاقبت عليه الايام . لاصبرن على مضض الذكرى . رأيت الام الى جانب ابنها المريض وقد تغلبت عندها عاطفة الحنو الطبيعي فانستها نفسها ولم تبق لها وجوداً خاصاً بل تقدمت بكليتها ضحية لقرة عينها وفلذة كبدها متفانية في خدمته ساهرة على راحته بين خوف ويأس ورجاء وأمل . تسمع انينه وتوجعه فكأنما سهام صوبت الى كبدها وترقب ضعفه وخموله فتذوب وجداً وكمداً وترى تململه من طول رقاده فتغص غصة من لا حيلة له ولا قوة . تطرق لمداواته ابواباً عدة متنوعه وهو راض بكل شيء شأن الغريق يلتمس النجاة بالالتجاء الى أوهى حشائش الماء واضعفها . فان تداركته العناية في لحظة ارتسمت على وجهها المكتئب الشاحب علامات البشر يتجاذبه الاشفاق وحسن الامل في فضل الله فيضعف او يقوى ؛

شهدت وقلبي خافق عبرات حارة تذرفها الأم كلما لعبت بها الهواجس والوساوس اذ تبصر مريضها يتدرج للفناء ويراق دم حيانه قطرة قطرة .

واستشعرت بها فى سكونها دائمة التوسل والتضرع لا تغفل لها عين ولا يهدأ لها بال وهيهات ان يخالط النوم جفن أم أسلم المرض ابنها لطول السهاد . نفسان يتأثران معا وما الاصل وفرعه الا واحد وقلبان مستخلص احدهما من الآخر فهما يشعران بشعور واحد وروحان متعانقتان عزيز عليهما ان يفترقا ولكن ما الحيلة اذا غلب القضاء وشتت الشمل وحل عقد الجماعة .

يا لجلال الساعة الرهيبة ليس فى مقدور الالفاظ ان تعبر عن قوة الحنان الطبيعي والمشاعر الحقيقية ساعة انقض الموت على زهرة آمالنا واطبقت قوته الغشوم جفنيه وأسالت نفسه وازهقت روحه واطفأت في قلبه الفتى جذوة الحياة . بين أب واخوة مطرقين واجمين تثور فى صدورهم لواعج الحزن والجوى وتخنقهم العبرة حتى تكاد تخون مظاهر الرجولة الذى يأبى عليهم الا احتباسها . واخوات جمدن شاخصات للاخ المحتضر وقد خامرهن الشك فى جبروت الموت وما عرفن انه يعدو على الشباب لا تأخذه به رحمة . فلما أيقن ان قد نفذ السهم اذهلتهن الفاجعة ووقفن لايدرين صوابا ولا يحرن جوابا . من سكون عميق وصمت أخرس الى ولولة وصياح وندب وصراخ ونداء بالاسم المحبوب وحسرات على الخسارة لفقده ثم ضعف واخلال وخور وعبرات مهراقة ويأس قاتل . وأم منهوكة ضعيفة يتناوبها صمت الذهول ورعدة الجزع وصيحات الألم المرة .

ثم تنزل عليها سكينة الايمان بتلاوة المقرىء لآى الذكر الحكيم فتهمس مستسلمة . « لك الامر يا صاحب الامر لا اعتراض يا ربى على حكمك هكذا شئت ولا حيلة لنا امام قدرك » . ولكن القلب المضطرم لا يقوى على احتباس اللهيب طويلا فتتطاير مراراً وتكراراً صيحات الحزن المفرط والكمد الشديد . وما ان يزال الفؤاد المكلوم يتفطر بمرأى ثمرته ملقاة على فراش الفناء في ليل أثقل الهم المبرح خطواته وخيمت سحائب الحزن القاتم سماءه فطمست بدرها ونجومها حتى اسفر الصباح وملأ الجو من جديد صراخ النادبات المعولات وطلعت الشمس ملتهبة بحرارة الصدور المتأججة للخطب الجلل وحانت ساعة الفراق الاخير وبين صيحات كادت تشق الاكباد وتنتزع القلوب حملت الجثة العزيزة الى مستقرها على أعناق الاهل والاحباء منكسة رؤوسهم للرزء الفادح والمصاب العظيم . تلك ساعة يعجز عنها الوصف فلا ينقص من هولها وروعتها قلمى :

هذى صورة الحادث المؤلم الذى جرعنى كأساً مريرة وغير نظرى وتقديرى للاشياء وهى هى باقية على حالها لم تتغير ولم تتبدل ولكن للعواطف حكماً تخلقه الظروف

أفأقول حيا الله الذكرى أم قاتل الذكرى . أنى اجلك واكرمك أيتها الذكرى لانك أنت البقية الباقية من كنزى المفقود والاثر الخالد من عزيزى الراحل . أنت القيثارة الشجية التى ترتل صوت الحادث المؤلم بنغمات موجعة يرتاح لها القلب المحزون مذالف الشجى . ولا ضير عليك فيما تثيرينه من العبرات فلكم ينفس البكاء عن الصدر المكروب

احسان حسين هيكل